النموذج المعرفي بين ثلاثية التأصيل الإسلامي التوجيه والتوطين في العلوم الاجتماعية

The paradigm among the threefold 'islamic legitimacy,orientation and localisation in the social sciences

د.بتقة ليلى
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
leila.betka@univ-msila.dz

ملخص:

الباحث في حقل العلوم الاجتماعية اليوم يجد أنها تخضع لنماذج معرفية تحمل في طياتها جملة من المفاهيم، النظريات، والمعتقدات، والتصورات حول كل من الإله الحياة والإنسان ، ذات المنشأ البيئي والفكري الذي خرجت منه. فمن خلال هذا المقال نحاول التعرف على أهمية النموذج المعرفي في توجيه العلوم الاجتماعية ، بالإضافة إلى التعمق في ثلاثية التأصيل والتوجيه والتوطين للنموذج المعرفي، وهل إيجاد نموذج معرفي قائم على المسلمات الوجودية والمعرفية والمنهجية للعلوم الاجتماعية في مجتمعاتنا يعرضنا لسؤال الموضوعية العلمية؟

كلمات مفتاحية: النموذج المعرفي، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، أسلمة المعرفة، توطين المعرفة، الموضوعية العلمية.

Abstract:

A social sciences researcher today finds that they are subject to cognitive models with a range of concepts, theories, convictions, and perceptions about all of God, life and man,Through this article, we try to identify the importance of the paradigm in guiding the social sciences, in addition to delving into the trilogy of islamisation, orientation and localization of The paradigm, and does the creation of paradigm for our societies expose us to the question of scientific objectivity ?

Keywords: The paradigm, Islamic integration of social sciences, Islamisation of knowledge, localisation of knowledge, scientific objectivity.

مقدمة:

إنطلاقا من كون النموذج المعرفي نسق معياري وإدراكي ينظم تفكيرنا في حقل معين ويوفر له الأساس والإطار المعرفي الذي يوجه الباحث ويمده بجملة من المفاهيم، النظريات، والتصورات حول كل من الإله الحياة والإنسان ، فهو مجموعة من القناعات والمعتقدات التي تسهل لنا الولوج لعمق الحقائق والأشياء، دون الاستغراق في التفاصيل، نجد العلوم الاجتماعية كغيرها من حقول البحث واجهت العديد من المشكلات في دراسة الظواهر من منطلقات غربية بحتة تحمل بنية مفاهيمية غريبة عن واقع الظاهرة المدروسة، كما تمدها هذه النماذج المعرفية بتصورات ومعتقدات عن كل من الإنسان ،المجتمع والوجود تكاد تبعدها عن المسلمات والأسس المعرفية التي نشأت فيها، وأصبحت هذه النماذج المعرفية بما تحمله من مفاهيم ونظريات في ميدان العلوم الاجتماعية بما تحمله من تخصصات مختلفة هي الموجه الأكبر لتحليل وتفسير كل القضايا التي تناقشها، مع العلم أن جل هذه النماذج المعرفية قد نشأت وتبلورت في عصر اتسم بالصراع بين الكنيسة والعلم في أوربا أو ما أطلق عليه عصر النهضة، وهو ما صبغ نظرة هذه العلوم لكل من الإنسان والوجود بمخلفات ذلك الصراع، وما ترتب على هذه الصبغة والتصور من فهم للعلاقات والنظم الاجتماعية فيما بعد، وهو ما دفع بالمتخصصين في حقل العلوم الاجتماعية في الدول العربية لمواجهة هذا الإشكال القائم من خلال إعادة النظر في المسلمات الوجودية(الأنطولوجية) والمعرفية(الابستمولوجية) والمنهجية(الميتودولوجية) التي تحملها هذه النماذج المعرفية، باعتبار أن ما تضمه هذه العلوم من مفاهيم ونظريات ليس فوق النقد وليست من المقدسات الواجب التسليم بها دون نقاش، أو أنها تحمل في طياتها بذور صلاحها لكل المجتمعات بمختلف مشاربها وأطرها الفكرية ومرجعياتها الدينية بما يمنعها من المساءلة الفكرية والمعرفية، وإعادة النظر في هذه المسلمات الوجودية والمعرفية والمنهجية هي طريقة قائمة على تجاوز النقل الحرفي إلى الدراسة النقدية القائمة على التمييز بين الاختلاف النابع من اختلاف المسلمات ذاتها وبين الاختلاف في بيئة هذه النماذج وموطن نشأتها وهو ما دفع بالبعض إلى المناداة بتوطين العلوم الاجتماعية من هذا المنطق، وبين الاختلاف الناجم عن التوجس من استخدام هذه النماذج المعرفية كراهية لأصلها.

وبهذا نجد أن المشتغلين في حقل العلوم الاجتماعية رغم إجماع أغلبهم على عدم صلاحية هذه النماذج المعرفية أو قصورها في توجيه القضايا التي تعالجها هذه التخصصات إلا أنهم انقسموا بين ثلاث فئات:

فئة تنادي بتأصيل النماذج المعرفية للعلوم الاجتماعية من خلال التأكيد على أن إصلاح العلوم الاجتماعية وخروجها من دائرة الأزمة الراهنة يتطلب النظر في المسلمات الوجودية والمعرفية والمنهجية التي تقوم عليها تلك العلوم وهو ما أطلق عليه **عبد الرحمن رجب** "ثورة التنظير في العلوم الاجتماعية "،والتي يتم في إطارها الجمع بين معطيات الوحي والعقل والحواس في الوصول إلى الحقيقة فيما يتصل بالإنسان والمجتمع من خلال التفاعل بين النظرية والبحث ذلك أن التفاعل البناء بين التنظير والبحث يمثل جوهر منهج التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية وأساس بنائه ، هذا المنهج الذي يحدد أبعاد التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، والتي كانت تعرف سابقا بعملية أسلمة المعرفة وهو مادعى إليه إسماعيل الفاروقي في مقاله "أسلمة المعرفة".

وفئة تنادي بضرورة التوجيه لهذه النماذج المعرفية فقط مع التسليم بمنطلقاها.

أما الفئة الثالثة فهي التي تنادي بعملية التوطين لهذه النماذج المعرفية لإقامة نماذج علمية تتواءم وطبيعة المجتمع العربي وعملية التوطين ليست قضية توجه فكري يبحث في منطلقات وتصورات هذه العلوم وغاياتها بقدر ما هي عملية أقلمتها حسب طبيعة ومتطلبات المجتمع العربي أي إيجاد نوع من التوفيق والملاءمة بين نظريات ومفاهيم العلوم الاجتماعية وبين الواقع الثقافي والاجتماعي للمجتمع العربي وهو نوع من التسليم بصحة وصلاحية النموذج الغربي في جوهره من ناحية المبدأ

والتوجه الفكري ومن ناحية المسلمات التي ينطلق منها في تعامله مع الإنسان والكون والوجود.

فمن خلال هذه الورقة البحثية نحاول التعرف على أهمية النموذج المعرفي في توجيه العلوم الاجتماعية من خلال نسقي التحليل والتفسير، بالإضافة إلى التعمق في ثلاثية التأصيل والتوجيه والتوطين للنموذج المعرفي، وهل إيجاد نموذج معرفي قائم على المسلمات الوجودية والمعرفية والمنهجية للعلوم الاجتماعية في مجتمعاتنا يعرضنا لسؤال الموضوعية العلمية؟

2.السياق المفاهيمي

1.2 مفهوم النموذج المعرفي (البراديغم):

يقول د. المسيري: "هناك نوعان من التحليل مختلفان: التحليل السياسي والاقتصادي، وهو يكتفي برصد الظواهر السياسية والاقتصادية، ويهمش العناصر الأخرى التي تحدد علاقة الإنسان بالكون والإله.

النوع الثاني هو التحليل المعرفي؛ فكل خطاب سياسي أو اقتصادي -مهما كان سطحيًّا- يتأسس على نموذج معرفي، سواء كان هذا النموذج ظاهرًا أو كامنًا؛ فإذا قلنا إن قوانين السوق جوهر حركة المجتمع؛ فإننا نكون قد قمنا بتفسير ظاهرة الإنسان بشكل اقتصادي سياسي، وإذا أخضعنا هذه العبارة نفسها للبحث، لتوصلنا إلى أن صورة الإنسان هنا هي صورة إنسان مادي خاضع لقوانين خارجة؛ وبذلك نكون قد تجاوزنا المستوى السياسي والاقتصادي وصولاً إلى رؤية الكون (الله- الإنسان- الطبيعة) وهذا هو المستوى المعرفي"[1]

ويحدد توماس كونThomas S.Kuhn النموذج اعتمادا على مصفوفة معرفيةdisciplinary matrix ، مكونة من أربعة عتاصر:[2]

أ- يتضمن قوانين وتعريفات وتعميمات رمزية (Modelization)، وكلما كثر عددها، كان العلم أكثر قوة.

ب- يتضمّ ن نماذج ميتافيزيقية واعتقادات (Beliefs) معينة، تتيح للمجموعة العلمية استلهام الرموز والاستعارات لشرح النظرية العلمية.

ج- يتضمّ ن قيم(Values) ، من قبيل تماسك النظرية العلمية، واتساقها الداخلي، وكذا انسجامها مع الواقع. والقيم تشمل أيضا المواقف المشتركة للعلماء تجاه أزمات العلم، وتجاه النظريات المجدّدة.

د- يتضمن نماذج (Exemples) في شكل معارف ضمنية، تُكتسب عن طريق ممارسة العلم.

حتى أن الفيلسوف الأمريكيّ توماس كون الذي وظَّفه في كتابه "بنيّة الثّورات العلميّة La structure des revolutions sientifiques"، أوضح أنَّ مفهوم الأنموذج /البراديغم يخرج بالعلم من دائرة التراكمية والتسليم بما هو موجود إلى الثورات العلمية التي تؤسس لشيء جديد؛ فالنموذج عنده: "إنه بالأحرى إعادة بناء قطاع بكامله على أسس جديدة"[3]

وميشال دوبوا يشير إلى أنَّ البراديغم أو النموذج المعرفي هو :مجموعة أمثلة معترف بأنها عمل علمي وهي أمثلة تشتمل على قوانين ونظريات وتطبيقات وعدة تجريبية تقدم نماذج تولد تقاليد محددة ومتماسكة في البحث العلمي.[4]

هناك من قدم صفات تمثل النموذج النظري باعتباره تمثل وتصور لواقع ما والمتمثلة في أنه:[5]

1-اختزالي: بعض خصائص الواقع تدرك وحدها من خلال النموذج.

2- انحيازي: يكون موجها بأدوات الملاحظة و التفكير النظري، ولكن أيضا بأهداف المنمذج.

3-قابليته للعكس: يكون النموذج في الآن نفسه تجريدا للواقع موجود مسبقا وطرازا بدئيا أو سندا لبناء مستقبلي.

هذه الصفات تؤكد ضرورة وجود نموذج معرفي يتوافق والهوية القيمية أو المنظومة الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي، فالنموذج المعرفي هو ذلك الإطار النظري الذي ننظر من خلاله للواقع فنحلل ونفسر مايحدث في الواقع وفقا لمسلمات وقواعد هذا الإطار النظري المرجعي؛ وكأنَّ النموذج المعرفي هو النظارة التي يرى بها الباحث الواقع الاجتماعي ويفسره من خلالها.

2.2 التأصيل الإسلامي للعلوم الانسانية والاجتماعية:

وانطلاقا مما سبق وجدت الكثير من المفاهيم التي تفسر الواقع الاجتماعي، منها مصطلح: التأصيل الإسلامي للعلوم الانسانية والاجتماعية، والذي يقصد من خلاله إرجاع هذه العلوم إلى مصادر التشريع الإسلامي (القرآن والسنة)، وبهذا نجد اللجنة الدائمة للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عرفت التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية على أنه:"إبراز الأسس الإسلامية التي تقوم عليها هذه العلوم من خلال جمعها أو استنباطها من مصادر الشريعة وقواعدها الكلية وضوابطها العامة، ودراسة موضوعات هذه العلوم على ضوئها مع الاستفادة مما توصل إليه العلماء المسلمون وغيرهم ومما لايتعارض مع تلك الأسس"[6].

وكمثال على هذا النوع من الدراسات نجد دراسة كل من :

أ.د عبد الرحمان رجب والتي جاءت بعنوان:" منهج التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية"

لقد حاول أ.د عبد الرحمن رجب التأكيد على أن إصلاح العلوم الاجتماعية وخروجها من دائرة الأزمة الراهنة يتطلب النظر في المسلمات الوجودية والمعرفية والمنهجية التي تقوم عليها تلك العلوم وأشار إلى أن الإصلاح المرتقب يمكن أن يتم في إطار ما أطلق عليه الباحث"ثورة التنظير في العلوم الاجتماعية"، والتي يتم في إطارها الجمع بين معطيات الوحي والعقل والحواس في الوصول إلى الحقيقة فيما يتصل بالإنسان والمجتمع من خلال التفاعل بين النظرية والبحث ذلك أن التفاعل البناء بين التنظير والبحث يمثل جوهر منهج التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية وأساس بنائه على حد قوله هذا المنهج الذي يحدد أبعاد التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والمتمثلة في :

أولا: تحديد أبعاد التصور الإسلامي الشامل للإنسان والمجتمع والوجود استخلاصا من المنابع الرئيسية للمنهج الإسلامي التي تتمثل في الكتاب والسنة الصحيحة مع الاستفادة من اجتهادات علماء المسلمين من السلف والمعاصرين المستمدة من تلك المنابع الرئيسية والملتزمة بها وتحديد ما يتضمنه هذا التصور فيما يتصل بالمجال العام الذي تغطيه اليوم العلوم الاجتماعية الحديثة .

ثانيا: حصر نتائج البحوث العلمية المحققة في نطاق العلوم الاجتماعية الحديثة ومسح نظرياتها وتحليلها وإخضاعها للتمحيص والنقد في ضوء مقتضيات ذلك التصور الإسلامي سواء من حيث الموضوع أو المنهج .

ثالثا: بناء نسق علمي متكامل يضم ما صح من نتائج العلوم الحديثة وما صمد للتمحيص والنقد من نظرياتها ويربط بينها وبين ما توصل إليه علماء المسلمين من حقائق وتعميمات برباط تفسيري مستمد من التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود .

رابعا: استنباط فروض مستمدة من ذلك النسق العلمي المتكامل الذي تم التوصل إليه فيما سبق وإخضاع تلك الفروض للاختبار في أرض الواقع للتحقق من صدق الاجتهاد البشري المتضمن بالضرورة في عملية بناء أي نسق علمي نظري .

ويخبرنا الباحث أن المتأمل لهذه العناصر سرعان ما يتبين أن المكون الثالث من هذه المكونات يشير إلى عملية بناء النظريات المؤصلة إسلاميا وأن المكون الرابع يشير إلى عملية إجراء البحوث وأن التكامل بين هذه العناصر جميعا يشير إلى الطريق الصحيح أي المنهج الذي يمكننا من إنتاج علوم اجتماعية مؤصلة إسلاميا على الوجه المحقق لأهداف تلك العلوم وقد حاول أ.د عبد الرحمن رجب ترجمة منهج التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية إلى مجموعة من الإجراءات أو الخطوات أو العمليات المحددة التي يمكن للباحث أن يسير في ضوئها حال سعيه لتأصيل أحد موضوعات العلوم الاجتماعية.[7]

3.2 أسلمة المعرفة:

ونجد هناك من يطلق على عملية التأصيل الإسلامي للعلوم الانسانية والاجتماعية بعملية أسلمة المعرفة والتي أطلقها المفكر اسماعيل الفاروقي، الذي يعرفها على أنها: «إعادة صياغة المعرفة على أساس علاقة الإسلام بها، بمعنى أسلمتها؛ أي إعادة تعريف المعلومات وتنسيقها، وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصلة منها، وأن يقوم من جديد ما انتهي إليه من

استنتاجات، وأن يُعاد تحديد الأهداف، على أن يتم كل ذلك في إمكانات تجعل تلك العلوم تثري التّصور الإسلامي، وتخدم قضية الإسلام، وأعني بها وحدة الحقيقة، ووحدة المعرفة، ووحدة الإنسانية، ووحدة الحياة، والطبيعة الغائية للخلق وتسخير الكون للإنسان، وإدراك الحقيقة وتنظيمها»[8].

ويعد الفاروقي من الأوائل الذين ناضلوا من أجل تأصيل العلوم وإضفاء الصبغة الإسلامية على هاته المعارف للخروج بنموذج معرفي يتوافق وهوية الفرد المسلم وبيئته الداخلية وعالمه الخارجي.

كما نجد فئة تنادي بضرورة التوجيه لهذه النماذج المعرفية فقط مع التسليم بمنطلقاها وهو مايتعارض مع عملية التأصيل الإسلامي لهذه العلوم والمعارف.

كما تعني:" فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري، والإحالات الفلسفية الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف هذه العلوم ضمن ناظم منهجي ومعرفي إلهي، قائمٍ على الوحي، وغير وضعي، وهذا معناه أسلمة العلوم التّطبيقية والقواعد العلمية، بفهم التّماثل بين سنن هذه العلوم وقوانينها، وسنن الوجود وقوانينه، وتوجيه هذه العلوم الوجهة الإسلامية، وتوظيفها لتحقيق المقاصد الإلهية".[9]

4.2 توطين المعرفة:

أما الفئة الثالثة فهي التي تنادي بعملية التوطين لهذه النماذج المعرفية لإقامة نماذج علمية تتواءم وطبيعة المجتمع العربي، **وعملية التوطين** ليست قضية توجه فكري يبحث في منطلقات وتصورات هذه العلوم وغاياتها بقدر ما هي عملية أقلمتها حسب طبيعة ومتطلبات المجتمع العربي أي إيجاد نوع من التوفيق والملاءمة بين نظريات ومفاهيم العلوم الاجتماعية وبين الواقع الثقافي والاجتماعي للمجتمع العربي وهو نوع من التسليم بصحة وصلاحية النموذج الغربي في جوهره من ناحية المبدأ والتوجه الفكري ومن ناحية المسلمات التي ينطلق منها في تعامله مع الإنسان والكون والوجود؛ فهذا التيار يقر بهيمنة النموذج المعرفي الغربي، وقابليته للتكرار في المجتمعات العربية والإسلامية مع إمكانية تدعيمه بخصائص البيئة المحلية.

إلاَّ أنَّ هذه العملية"التوطين" تنم عن فكر تابع غير قادر على الإنجاز، مولع بتتبع الغالب على حد قول مالك بن نبي؛ وهي في ذاتها نظرة دونية لكل ماهو عربي إسلامي، غير منتجة ولن تصلح هذه الأفكار مع البيئة العربية وإن تمت أقلمتها باعتبارها أنشئت لبيئة غير البيئة العربية، "فالأفكار هي أشياء تبتدع أويعاد ابتكارها وإنتاجها في أتون التجارب الفردية وفي رسم الممارسات الاجتماعية، أما محاولات نقلها وتطبيقها ، فلا تنتج سوى هذا الخراب الذي جرت إليه العقليات الأحادية والآليات السحرية في التعامل مع مفردات : التنوير والتحرير والتغيير...الخ".[10]

3. أهمية النموذج المعرفي في توجيه العلوم الاجتماعية

تكمن أهمية النموذج المعرفي بالنسبة للعلوم الاجتماعية في كونها تحدد طبيعتها والزاوية التي من خلالها يتم تناولها والتصور الذي يحدد أطر معالجتها وتفسيرها.

فالنموذج المعرفي يزودنا بفهم أعمق وتفسير أشمل لما يدور حولنا، وتأويل كل مفردات الواقع المعاش من خلال (النسق المفاهيمي، نسق التحليل، نسق التفسير)، فمن خلال تصورنا لكل من الفرد والمجتمع والكون يأتي تفسيرنا لما يحدث؛ فمثلا لايمكن تفسير المشكلات الفردية والاجتماعية بعيدا عن فهمنا لطبيعة الفرد الذي يقع في هذا النوع من المشكلات .

كما أنَّ هذا التأثير والتوجيه للنموذج المعرفي للعلوم الاجتماعية ليس بالضرورة أن يكون ظاهريا، فهناك مايعرف بالتوجيه الضمني والناتج من مواصفات النموذج المعرفي والمتعلق بصفة الانحيازية؛ فهو ينحاز للإطار الثقافي والقيمي للمجتمع المستمدة منه، "فالمؤثرات الثقافية قد حددت الافتراضات التي ننطلق منها بصدد العقل والجسد والكون، فهذه المؤثرات الثقافية تطرح الأسئلة التي نلقيها وتؤثر في الوقائع التي نلتمسها وتقرر التفسير الذي نعطيه لهذه الوقائع وتوجه ردود أفعالنا إزاء هذه التفسيرات والاستنتاجات".[11]

3. الحاجة إلى وجود نموذج معرفي يحمل البعد القيمي الثقافي للبيئة العربية الإسلامية

إنطلاقا من القاعدة التي تقول أنَّ إيجاد البديل يلزم الوعي والإدراك الفعلي بوجود أزمة فعلية فيما يتعلق بطبيعة النماذج المعرفية التي تسير وتحكم العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ أمد بعيد، هذه الأزمة التي يقر بها حتى بعض المفكرين الغربيين، والتي تتعلق بمنطلقات النموذج المعرفي الغربي؛ فهذا ريمون بودون يقول:" إن الأحداث السياسية والثقافية التي شهدتها أوربا في منتصف الستينات من القرن الماضي، كشفت عن ترهل علم الاجتماع، وحفزت على إطلاق حوار جدي عن طبيعة الأبحاث السوسيولوجية، ودور عالم الاجتماع، وأزمة علم الاجتماع، ... فالأحداث الدرامية للطلبة في فرنسا دفعت بالكثير من علماء الاجتماع إلى ضرورة إعادة النظر في النظريات الاجتماعية السائدة:الماركسية والبنائية الوظيفية.[12] فإذا كانت هذه النماذج غير صالحة لنفس البيئة التي وجدت فيها بمجرد تغير الظروف السياسية والتاريخية والثقافية لتلك المنطقة، فكيف بنموذج معرفي موجه لمجتمعات غير المجتمعات التي نشأ فيها والتي تختلف عنه جملة وتفصيلا من حيث البعد القيمي الثقافي.

فحاجتنا اليوم كمجتمعات عربية إسلامية إلى نموذج معرفي يحمل في طياته البعد القيمي والثقافي لمجتمعاتنا تنطلق من كون هذه النماذج المعرفية الغربية التي استوردناها كما نستورد كل شيء من الغرب تعاني من أزمة تكمن في العناصر التالية:

1-منطلقات هذه النماذج المعرفية ذات الجذور الفلسفية والدينية المحرفة، التي تحمل تصورات مادية لكل من الإنسان والكون وتنزع عنه كل مايتعلق بالقيم والبعد الديني، بل تنظر للدين كظاهرة دينية لاغير (نزعت عنها صفة المقدس)، وهو التوجه العلماني الذي تتبناه هذه النماذج المعرفية الغربية، التي تسعى جاهدة لوأد كل ما له علاقة بالجانب الديني وصورت الدين كعدو للعلم وعقبة في طريق البحث والتقدم.

2-البعد الإيديولوجي للنموذج المعرفي الغربي المستمد من الفكر الماركسي الشيوعي(نظرية الصراع)، والفكر الرأسمالي(النظرية التكاملية) ، وهنا تظهر إشكالية سيطرة السياسي على العلمي المعرفي.

3-السياق التاريخي والاجتماعي الذي تولدت عنه هذه النماذج المعرفية الغربية، والذي يختلف تماما عن السياق التاريخي الاجتماعي العربي الإسلامي، فلا يمكن فهم وتفسير الفعل الاجتماعي خارج السياق التاريخي والاجتماعي الذي وجد فيه، وهو ما يؤكده أحد منظري النموذج المعرفي الغربي "فيبر"، حين أكد أن دراسة الفعل الاجتماعي تنقسم إلى فهم الفعل الاجتماعي أو الظاهرة الاجتماعية في مستوى المعنى الفردي الذاتي(العاطفة والغاية)، أما المستوى الثاني فهو فهم الفعل على المستوى الجمعي(القيم والعادات السائدة).

4-النسق المفاهيمي أو البنية المفاهيمية التي تمثل النموذج المعرفي الغربي، والتي هي وليدة البيئة التي نشأت فيها، كمصطلحات الحداثة وما بعد الحداثة، المجتمع الصناعي ومابعد الصناعي.

5-أزمة تتعلق بالمنهج: فالنموذج المعرفي الغربي سعى إلى ترييض الظاهرة الاجتماعية والمماثلة بينها وبين الظاهرة الطبيعية التي حولتها إلى مجرد معرفة شكلية بعيدة عن واقع الظاهرة الاجتماعية وتمثلاتها القيمية، وهو ماتسبب في أزمة النموذج المعرفي الغربي بشكل معمق؛ فنجد أدموند هوسرل يقول إنَّ: "أزمة العلوم الاجتماعية في الحقل الغربي هي أزمة تعبر عن الأ فق المعرفي المحدود للمنهج

الوضعي الذي تم استخدامه في دراسة الإنسان، أين حول الذات الإنسانية إلى موضوع دراسة مثلها مثل مواضيع الطبيعة التي تدرسها العلوم الطبيعة" .[13]

6-فصل الذات الباحثة وماتحمله من قيم وإيديولوجية عن الظاهرة المدروسة بدعوى الموضوعية، وهنا كان الأساس من هذه الدعوى هو استبعاد العوامل الروحية والدينية عن تفسير الظاهرة الاجتماعية لاغير.

فكما يقول"جولدنر" أنَّ التيار الذي ينادي بوجوب أن يكون علم الاجتماع محايدا قيميا إنما هو امتداد للصراع القديم بين الدين والعقل.

وهو مانعكس على تعريفهم للموضوعية العلمية بالنظر لدلالاتها المتمثلة في:[14]

-دلالاتها القيمية:تعد الموضوعية تجرد من كل حكم من الأحكام القيمية.

-دلالاتها المعرفية:وهي تتجاوز التعريف التقليدي (معرفة الأشياء كما هي) إلى العناية بالصلة بين الذات العارفة والموضوع المعروف.

-دلالاتها النفسية:تعد تمحيصا لأثر العوامل النفسية في تشكيل المعرفة.

-دلالاتها الثقافية:التي تشير إلى الإتفاق حول المعايير والتدابير السائدة في المناخ الفكري عند بحث موضوع ما، والسائد هو ما اتفق عليه المجتمع العلمي في ذلك الوقت.

وهو مايؤكده **"جيبسون"** بقوله أنَّ الموضوعية هي:**"**ماينتج عن التأثير المناوئ للاستخدام السليم للشواهد، والبيانات المتاحة للباحث، وهو تأثير دوافع الشخص وعرفه وقيمه وموقفه الاجتماعي، فأن تكون موضوعيا معناه ألاَّ تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعي".[15]

فمن خلال تعريفهم للموضوعية العلمية يريدون التنصل من كل ماله علاقة بالجانب القيمي والفكري للباحث، لكن الغريب في جل الدراسات الغربية لا تخلو من مسلمات ومنطلقات فكرية وليدة البيئة والمذهب الذي يتبنونه كغربيين، فإذا كانت الدراسة العلمية الفكرية لموضوع معين يبنيها العالم وفق نموذج معرفي معين(براديغم)، فكما تناولنا سابقا في السياق المفاهيمي للنموذج المعرفي بكونه ذلك الإطار النظري الذي ننظر من خلاله للواقع فنحلل ونفسر مايحدث في الواقع وفقا لمسلمات وقواعد هذا الإطار النظري المرجعي؛ وكأنَّ النموذج المعرفي هو النظارة التي يرى بها الباحث الواقع الاجتماعي ويفسره من خلالها. وهو ما يؤكد أن الذاتية هي صفة ملازمة لكل نشاط معرفي، فكيف نعرف الموضوعية العلمية بكونها التخلي عن كل دلالاتها المعرفية والقيمية والثقافية والنفسية والموقفية وحتى البيئية، فللزمن اعتباره وللقيم اعتبارها ولبيئة منشأ الظاهرة اعتبارها، فنحن نتكلم عن علوم إنسانية لا يمكن حصرها في قالب جامد بداع الموضوعية ونهمل باقي العوامل المنتجة لها والمؤثرة فيها، تشبها بالعلوم الطبيعية، فالإنسان ابن بيئته وزمنه، ولهذا نجد **ميشال فوكو** يؤكد على هذه الجزئية بقوله:**"** إنَّ الأفعال الإنسانية مهما أنتجنا حولها من مقولات وتفسيرات تظل رهينة بزمن إنتاجها، لأن الإنسان كائن منتج ومتغير**"**، والغربيون الذين عاشوا زمن اضطهاد الكنيسة وفصل كل ماهو ديني عن مناطق الفكر والحكم، والتحرر من كل التصورات اللاهوتية والميتافيزيقية، لأنها تتصل بحقبة زمنية لم تزد العلم إلا تخلفا وجمودا، أنتجوا لنا معارف تقاطع كل ماله علاقة بالدين والقيم وتمقت كل معرفة تشوبها منطلقات فكرية روحية، فحتى نتمكن من دراسة موضوعية لظاهرة أو قضية ما الحذر الإبستمولوجي مطلوب لكن لا يعني ذلك إلغاؤه.

5. خاتمة:

معرفة السياق الذي تتم فيه النماذج المعرفية وتوجد من خلاله أمر مهم جدا لمعرفة الإجابات عن التساؤلات الرئيسية المتمثلة في:

1-من يتحكم في النموذج؟

2-لصالح من؟

3-لماذا؟

4-مالمضمون الإيديولوجي والسياسي للنموذج المعرفي؟

ذلك أنَّ إغفال السياق يشوه حقيقة النموذج المعرفي ويضعنا أمام شماعة الموضوعية العلمية وإشكالية الذاتية والموضوعية في العلوم الانسانية والاجتماعية، التي تطرح بمجرد ما يحاول بعض المفكرين إيجاد نموذج معرفي يتوافق وهوية المجتمع الحامل لتلك الظواهر، وكأنها جريمة علمية تكسب صاحبها تهمة تحريف العلم والبحث العلمي، باعتبار القيم والدين والأيدولوجيا معيقات ابستيمولوجية يجب التخلص منها لقراءة موضوعية للظواهر الاجتماعية، فالنماذج المعرفية الموجودة حاليا خارج دائرة العالم الإسلامي وحقائقه يجب التسليم بأنها مجرد افتراضات لعلاقات قائمة وليست حقائق خالدة؛ وهو ما يؤكده كل من "ميلفين ديفلر (Melvin Defleur) "و"ساندرا بول روكيتش Sandra)(Ball-Rokeach "،بأنَّ:"

الافتراضات التي تشكل البراديغم تعد بالفعل من الأمور المسلَّم بها،بمعنى أنّ الافتراضات تتيح نقطة انطلاق لاستخلاص تفسيرات نظرية لجوانب أكثر دقة من الظاهرة الاجتماعية والنفسية، هذه المسلمات في حد ذاتها ليست عرضة للاختبار والتمحيص، فليس من الممكن جمع المعطيات والمادة التجريبية التي يمكن الاستناد إليها في قبول أو رفض الافتراضات المسلم بها، وبدلا من ذلك فإن هذه المسلَّمات تؤخذ كما هي ليس بمعنى أن ينظر إليها كحقائق خالدة، ولكن فقط كافتراضات؛ بمعنى آخر فإنَّ المسلمات هي بيانات تحدد العلاقات والظروف التي قد يختارها المرء لاعتبار شيء ما صحيحا وحقيقيا، بهدف دعم حجته، وتقوية رأيه، أوبهدف رؤية ما ستقود إليه من الناحية المنطقية، والتسليم بصحة علاقة معينة أو ظرف ما"[16] .

كما أنَّ المعرفة التي نتجت عن النمذجة المعرفية الغربية ليست معرفة كونية (ليس كل ماتثيره وتسلط الضوء عليه هو قضايا كل المجتمعات الإنسانية)، وإنما هي موجهة لبيئة محلية(باعتبار أنَّ المعرفة مرتبطة بالأطر الثقافية للمجتمعات).

فالمشكل الجوهري الذي تعاني منه مجتمعاتنا العربية اليوم هو محاولة الفصل بين النموذج المعرفي والهوية أو النموذج الثقافي القيمي، فلكل نموذج إدراكي بعد معرفي يحدد منطلقاته ومعتقداته وفروضه ومسلماته الفكرية التي تكون مرجعيته وتحدد مفاهيمه ونظرياته وتصوراته حول الفرد والمجتمع والكون ككل، ولايمكن القول أنه من باب الموضوعية العلمية التخلي عن الهوية الثقافية في البعد المعرفي.

6. قائمة المراجع:

[1]-المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج1، ط6، دار الشروق، مصر، 2010.ص.22.

[2] - Thomas S.Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions, Second Edition, Enlarged, The University Of Chicago Press, Chicago, 1970,p.182.

[3] - توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة: علي نعمان،ط1،دار الحداثة، لبنان، 1986، ص. 149.

[4]- ميشال ارمات، وآمي دهان دالمايكو: النماذج والنمذجات(1950-2000) : ممارسات جديدة ورهانات جديدة، ترجمة : هدى الكافي، محمود بن جماعة، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010 ، ص.47.

[5]- ميشال دوبوا: مدخل الى علم اجتماع العلوم، ترجمة: سعود الموالى، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص.151.

[6]- مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية:ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، الرياض، 1987.

[7] - ابراهيم عبد الرحمن رجب:التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية(المفهوم-المنهج-المداخل-التطبيقات)،ط1،دار عالم الكتب، الرياض،1996.

[8] - علي حرب: الفكروالحدث" حوارات ومحاور"،ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1997، ص.228.

[9] - طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي" مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لبنان،2009، ص.119.

[10] - ادموند هوسرل: أزمة العلوم الأوربية، والفينومينولوجيا الترندستالية، ترجمة : إسماعيل المصدق،ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص.48.

[11] - أغروس روبرت،جورج ستانسو:العلم في منظوره الجديد،ترجمة:كمال خلايلي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984،ص.144.

[12]- Raymond bondon : pourquoi devenir sociologue ? reflection et évocation, xxxxlx, n°120, 2001, p. 55.

[13] - إسماعيل راجي الفاروقي: أسلمة المعرفة(المبادئ العامة وخطة العمل)، ترجمة: عبد الوارث سعيد، دار البحوث العلمية، الكويت، 1983، ص. 33.

[14]- حسن بن محمد حسن الأسمري:النظريات العلمية الحديثة"مسيرتها الفكرية أسلوب الفكر التغريبي في التعامل معها دراسة نقدية، مج 2، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، د.س.ص.857.

[15]- صلاح قنصوة: الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، 2007، ص.65

[16]- ميلفين ل. ديفلر، ساندرا بول روكيتش: نظريات وسائل الإعلام، ترجمة: كمال عبدالرؤوف،ط4،الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، 2002 ،ص.63